مما كتبته المجاهدة الشهيدة في الرائد

دور المرأة في الهجرة(*)

أخبار من السيرة وتعقيب عليها

بنان الطنطاوي العطار

قال كعب بن مالك ﷺ في حديثه عن بيعة العقبة الثانية :

(.. فَنمْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَعَ قَوْمِنَا فِي رِحَالِنَا حَتَّى إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ خَرَجْنَا مِنْ رِحَالِنَا لِمِيعَادِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، نَتَسَلَّلُ مُسْتَخْفِينَ تَسَلُّلَ الْقَطَا ، حَتَّى اجْتَمَعْنَا فِي الشِّعْبِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ وَنَحْنُ سَبْعُونَ رَجُلاً وَمَعَنَا امْرَأَتَانِ مِنْ نِسَائِهِمْ نَسِيبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ ، أُمُّ عُمَارَةَ إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي مَازِنِ بْنِ النَّجَّارِ ، وَأَسْمَاءُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ عَدِيٍّ بْنِ ثَابِتٍ إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي سَلِمَةَ ، وَهِيَ أُمُّ مَنِيعٍ ..) أخرجه الإمام أحمد

سيرة ابن هشام

قالت أم سلمة رضي الله عنها :

(لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحَل لي بعيرَه ثم حملني عليه ، وحمل معي ابني سلَمة في حجري ثم خـــرج بي يقودُ بعيرَه ، فلما رأته رجالُ بني الْمُغيرة قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبْتنا عليها ، أرأيت صاحبتك هذه ؟علامَ نتركك تسير بها في البلاد ؟ فنـــزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه . وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد ، رهْـــط أبي سلمة ، فقالوا : لا والله ، لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا . قالت : فتجاذبوا بُنَيَّ سلمةَ بينهم حـــتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسني بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة ، ففُرِّق بيني وبين زوجي وبين ابني . فكنتُ أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح فما أزال أبكي ، حتى أمسي سنةً أو قريباً منـــها ، حتى مرّ بي رجلٌ من بني عمي ، أحدُ بني المغيرة ، فرأى ما بي فرحمني ، فقال لبني المغيرة : ألا تُخرجون هذه المسكينة! فَرَّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها ! فقالوا لي : الحقي بزوجك إن شئت . وردَّ بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني ، فارتحلت بعيري ثم أخذت ابني فوضعته في حِجري ، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة وما معي أحد من خَلْـــق الله .. إلخ)

سيرة ابن هشام

(*) نشر هذا الموضوع للأخت الشهيدة أم أيمن في العدد ٢٣ من (الرائد) الصادر في محرّم ١٣٩٧هـ وكانون الثاني/يناير ١٩٧٧م

قال ابن إسحاق :

(فلما أجمع رسول الله ﷺ الخروج ، أتى أبا بكر فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته ، ثم عمدا إلى غـــار بثور –جبل بأسفل مكة– فدخلاه وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبي بكر أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر ؛ وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ، ثم يريحهـــا عليهما يأتيهما إذا أمسى في الغار ، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما ..

فأقام رسول الله ﷺ في الغار ثلاثاً ومعه أبو بكر .. حتى إذا مضت الثلاث ، وسكن عنـــهما النـــاس ، أتاهمـــا صاحبهما الذي استأجراه ببعيريهما وبعير له ، وأتتهما أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما بسفرتهما ، ونـــسيت أن تجعل لها عصاما . فلما ارتحلا ذهبت لتعلّق السفرة فإذا ليس لها عصام ، فتحلّ نطاقها فتجعله عصاما ، ثم علقتها به

فكان يقال لأسماء بنت أبي بكر : ذات النطاق ، لذلك .

قال ابن هشام :

وسمعت غير واحد من أهل العلم يقول ذات النطاقين وتفسيره : أنها لما أرادت أن تعلق السفرة شـــقت نطاقهـــا باثنين ، فعلقت السفرة بواحد وانتطقت بالآخر)

سيرة ابن هشام

قالت أسماء بنت أبي بكر :

(لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه أتانا نفر من قريش ، فيهم أبو جهل بن هشام ، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم : فقالوا : أين أبوك يا بنت أبي بكر ؟ قالت : لا أدري والله أين أبي ؟ قالت : فرفع أبو جهل يـــده ، وكان فاحشاً خبيثاً ، فلطم خدّي لطمة طرح منها قرطي)

سيرة ابن هشام

وقالت أسماء أيضا :

(لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَخَرَجَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ ، احْتَمَلَ أَبُو بَكْرٍ مَالَهُ كُلَّهُ ، وَمَعَهُ خَمْسَةَ آلافِ دِرْهَمٍ أَوْ سِـــتَّةَ آلافِ دِرْهَمٍ ، قَالَتْ : وَانْطَلَقَ بِهَا مَعَهُ ، قَالَتْ : فَدَخَلَ عَلَيْنَا جَدِّي أَبُو قُحَافَةَ ، وَقَدْ ذَهَبَ بَصَرُهُ فَقَالَ : وَاللَّهِ إِنِّـــي لأَرَاهُ قَدْ فَجَعَكُمْ بِمَالِهِ مَعَ نَفْسِهِ ، قَالَتْ : قُلْتُ : كَلاَّ يَا أَبَتِ ! إِنَّهُ قَدْ تَرَكَ لَنَا خَيْرًا كَثِيرًا ، قَالَتْ : فَأَخَذْتُ أَحْجَارًا فَتَرَكْتُهَا فَوَضَعْتُهَا فِي كُوَّةِ الْبَيْتِ ، كَانَ أَبِي يَضَعُ فِيهَا مَالَهُ ، ثُمَّ وَضَعْتُ عَلَيْهَا ثَوْبًا ، ثُمَّ أَخَذْتُ بِيَدِهِ ، فَقُلْتُ : يَـــا أَبَتِ ، ضَعْ يَدَكَ عَلَى هَذَا الْمَالِ ، قَالَتْ : فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ فَقَالَ : لاَ بَأْسَ ، إِنْ كَانَ قَدْ تَرَكَ لَكُمْ هَذَا فَقَدْ أَحْـــسَنَ ، وَفِي هَذَا لَكُمْ بَلاَغٌ . قَالَتْ : لاَ وَاللَّهِ مَا تَرَكَ لَنَا شَيْئًا وَلَكِنِّي قَدْ أَرَدْتُ أَنْ أُسْكِنَ الشَّيْخَ بِذَلِك) رواه الإمام أحمد

سيرة ابن هشام

وقال أنس كما نقل البيهقي في الدلائل :

(قدم رسول الله ﷺ المدينة ، فلما دخلها جاء الأنصار برجالها ونسائها فقالوا : إلينا يا رسول الله . فقال : (دعوا الناقة فإنها مأمورة)

فبركت على باب أبي أيوب فخرجت جوار من بني النجار يضربن بالدفوف وهنّ يقلن :

نحن جوار من بني النجار يا حبذا محمد من جار

فخرج إليهم رسول الله ﷺ فقال : أتحبونني ؟ فقالوا : أي والله يا رسول الله . فقال : (وأنا والله أحبكم ، وأنـــا والله أحبكم ، وأنا والله أحبكم)

البداية والنهاية لابن كثير

قال أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه :

(لما نزل عليّ رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السّفل ، وأنا وأم أيوب في العلو فقلت له : يا نبيّ الله ، بأبي أنـــت وأمي ، إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي ، فاظهر أنت فكن في العلو ، ونننـــزل نحن فنكون في السفل؛ فقال : يا أبا أيوب ، إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت .

قال : فكان رسول الله ﷺ في سفله وكنا فوقه في المسكن ؛ فلقد انكسر حب لنا فيه ماء فقمت أنا وأم أيـــوب بقطيفة لنا ، ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء ، تخوّفا أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه .

قال : وكنا نصنع له العشاء ثم نبعث به إليه فإذا ردّ علينا فضله تيمّمت أنا وأم أيوب موضع يده ، فأكلنـــا منـــه نبتغي بذلك البركة ..)

سيرة ابن هشام

يكفي أن نلقي نظرة سريعة على النصوص المتقدمة لنرى بوضوح دور المرأة المسلمة في الهجرة .

فالمرأة المسلمة كانت موجودة في بيعة العقبة الثانية التي مهّدت لهجرة رسول الله ﷺ .

والمرأة المسلمة قد بادرت مع الرجل المسلم إلى الهجرة بالفعل عندما أمر الرسول ﷺ أصحابه بالخروج إلى المدينة، وحملت مع الرجل المسلم نصيبها من الخطر والألم والمشقة كما رأينا مثال أم سلمة رضي الله عنها .

والمرأة المسلمة كانت أهلاً لتؤتمن على سرّ هجرة الرسول ﷺ حيث لم يعلم بهذا السرّ إلاّ بضعة أشخاص منــهم عائشة وأسماء .. وحيث كان المشركون يمكرون بالرسول ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه -كما يذكر القرآن الكريم-

والمرأة المسلمة قد أسهمت في مخطط هجرة الرسول ﷺ ، وفي إنجاح هذه الهجرة ، وفي حمل تبعاتهــا في مالهــا ونفسها ، كما رأينا في مثال أسماء رضي الله عنها ، التي كان لها دورها في تزويد الرسول وصاحبه بالطعام في الغار ، وفي تجهيزهما للسفر ، والتي أصابها ما أصابها على يد أبي جهل من العدوان والإهانة ، والتي فقدت هي وأختها وجــه الأب وفقدتا ما يصلح شؤونهما من المال في وقت واحد .

والمرأة المسلمة كانت في استقبال الرسول ﷺ في المدينة كما كانت في وداعه في مكة .. لقــد خرجــت المــرأة المسلمة مع الرجل المسلم لاستقبال المهاجر العظيم تتفجر في قلبها عواطف الإيمان ومشاعر السرور بنجاته ووصــوله إلى قلعة الدعوة الجديدة : المدينة المنورة .

ولقد ظفرت المرأة المسلمة وسعدت في المدينة المنورة كما ظفر الرجل المسلم وسعد بشرف استضافة رســول الله ﷺ وخدمته والسهر على راحته والتماس البركة بوجوده كما يظهر لنا ذلك في أم أيوب رضي الله عنها .

ولم يكن للمرأة المسلمة دورها المذكور في الهجرة فقط .. ولكن كان لها دورها المذكور في مختلــف المواقــف والمراحل عبر تاريخنا الإسلاميّ الزاهر منذ أنزل الله على رسوله الكريم كتابه الخالد ليخرج الناس به من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد .. ومنذ وقفت السيدة خديجة رضي الله عنها وقفتها العظيمة بجانب الزوج العظيم والرسول العظيم تقول له كلماتها الباقيات التي اهتز لها وترنم بها الزمن والتاريخ : كلا والله لا يخزيك الله أبدا؛ إنك لتصل الرحم ، وتقري الضيف ، وتحمل الكلّ ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق .. ومنذ اخــتلط في بطحاء مكة دم سمية بدم ياسر رضي الله عنهما وهما يخطّان معاً صفحة الصبر على الشدة والبلاء ، والتصميم علــى العقيدة والفداء ، والاستعلاء على الباطل والطاغوت .. إلى ما لا يحصى من المواقف والنماذج الرائعة عبر العصور .. إلى أن فقدنا النور الإلهي في قلوبنا وعقولنا ، وغلبتنا أهواؤنا على ديننا ، ودنيانا على آخرتنا ، وصارت المرأة وصــار الرجل أيضاً -إلاّ من عصم الله- إلى ما نحن عليه الآن من عبودية للباطل والطاغوت ؛ عبوديــة لهمــا في بلادنــا ، وعبودية لهما في عالمنا .. كأننا لسنا من هذا القرآن ، ولا من هذا الرسول ، ولا من هذا التــاريخ المتــألق برجالــه ونسائه على السواء ..

وكم يؤلمني -أيها الأخوات- أن نتحدث عن تاريخنا وذكرياتنا الإسلاميّة الخالدة وقد انفصلنا بحياتنا عــن هــذا التاريخ وهذه الذكريات

كم يؤلمني أن نتحدث عن تاريخنا وذكرياتنا وقد غدت حياتنا بواقعها الراهن تكذيباً وإهانة لهذا التـــاريخ وهـــذه الذكريات

كم يؤلمني أن نتحدث عن تاريخنا وذكرياتنا بغير روح التصميم على أن نعيد الصلة الحية الفاعلة بيننا ، وعلى أن نجعل حاضرنا يناسب ماضينا البعيد

كم يؤلمني أن نتحدث عن الهجرة ولا نفكر بهجرة جديدة تنقلنا وتنقل أمتنا وبلادنا من حال إلى حال كما نقلت تلك الهجرة أصحابها ونقلت مجتمعهم وعالمهم ونقلت التاريخ البشريّ كلّه من حال إلى حال ..

إننا بأمس الحاجة إلى هجرة جديدة .. هجرة تتمثل فيها روح الهجرة الأولى ..

ألا فلنهاجر –أيها الإخوة والأخوات– إلى الله بقلوبنا وعقولنا وحياتنا .. فلنهاجر إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإلى هداية الإسلام في كل مجال .. ولننطلق بالإسلام ومن الإسلام لنعيد بناء أنفسنا من جديد وبناء مجتمعنـــا مـــن جديد وبناء عالمنا من جديد

إنّ هذه الهجرة بهذا المعنى هي سبيلنا وسبيل أمتنا وبلادنا وعالمنا إلى التحرر المعنوي والمادي وإلى خـــيري الـــدنيا والآخرة

ولقد كان للمرأة المسلمة دورها الكبير في هجرتنا الأولى وفي صنع تاريخها المجيد .. فليكن للمرأة المـــسلمة الآن دورها الكبير أيضاً في الهجرة الجديدة إلى الله والرسول ، وفي خدمة الإسلام والمسلمين ، وخدمة العـــالم والإنـــسان بالإسلام ، وفي صنع التاريخ مرة أخرى كما صنعناه من قبل بشموخه وجلاله ورائع ذكرياته وآثاره الباقية على الأيام

وليست هذه الدعوة التي ندعوها مجرد كلمات في تعليق عابر أو مقال ، ولكنها حقيقـــة في قلوبنـــا وأفكارنـــا وأعمالنا إن شاء الله .. حقيقة نطلقها ونربط بها المستقبل والحياة

فابسطن أيديكن إلينا أيها الأخوات .. ولننطلق معاً بروح جديدة ، وإرادة جديدة ، وخطوات جديدة في ســـبيل الله

* * *